في عودة الراديكالية اليسارية وهشاشة إسهامها الفكري: كيف تعيش الماركسية اليوم

الطاهر الأسود*

■ «في الرابع عشر من آذار/مارس، في الساعة الثالثة إلا الربع من الظهيرة، توقف أعظم مفكر على قيد الحياة عن التفكير. بموت هذا الرجل تعرضت كل من البروليتاريا المناضلة في أوروبا وأمريكا والعلم التاريخي الى خسارة لا تقاس».

من خطاب تأبين فريديريك أنجلز لرفيقه كارل ماركس مقبرة الهايغايت في لندن يوم 17 آذار/مارس 1883

يتعلق هذا المقال بتطورات ميدانية تعيد الماركسية أو طيفها الى مسرح الصراع الدولي ولو في كواليسه الأقل جذبا للاهتمام، حتى الآن على الأقل. ولكنه يطمح الى إعادة طرح أسئلة ضرورية في علاقة بالجدوى التاريخية للفكر الماركسي ومغزى حيويته. إن السؤال الأساس هنا هو التالي: هل كان ماركس مفكرا أم ثوريا؟ أو بشكل آخر: ألم يكن ثوريا فقط بشكل عرضي في حين كانت علامته المميزة التي فرضته على بقية الثوريين هي ابداعه الفكري؟ ومن ثمة، أي معنى للماركسية إن كان الطامح للانتساب اليها مجرد ثوري؟

يجب أولا تعريف الراديكالية اليسارية. بداية لا يتعلق الأمر بالمجموعات السياسية القومية بالأساس المتقدمة نحو السلطة السياسية في أقطار أمريكا اللاتينية، حيث لا هي حصرا يسارية ولا هي بالتأكيد راديكالية. كما لا يتعلق الأمر هنا ضرورة بمن يسمي نفسه «راديكاليا» وهو يساري في الآن ذاته، حيث توجد أحزاب عديدة تسمى «راديكالية» وذات برنامج يساري أيضا. بل يتعلق الأمر تحديدا بمن يعمل فعلا على قلب جذري أو «ثوري» للأنظمة القائمة على أساس أجندة يسارية. وفي الواقع وخلال أواخر القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين كان الحامل الرئيسي للواء الراديكالية اليسارية التيارات التي تنسب نفسها للماركسية وذلك رغم الحضور الدائم ولكن حتما الفضفاض لتيارات أخرى خاصة الفوضوية.

ولكن ليس كل من ينتسب الى الماركسية هو ضرورة راديكالي يساري. فلا يدخل ضمن الراديكالية اليسارية مجموع الأحزاب «الشيوعية» التي قبلت الاندماج في الأنظمة القائمة خاصة ضمن مجال أوروبا الغربية خلال النصف الثاني من القرن العشرين أي تلك التي تخلت عمليا عن برنامج «العنف الثوري» وفرض «دكتاتورية البروليتاريا». فبالرغم من كون هذه الأحزاب خلال أطوار نشأتها وطفولتها كانت القاطرة الرئيسية للراديكالية اليسارية فإنها اقتنعت سواء ضمن حركيتها المحلية أو الاستراتيجيا السوفييتية المتموقعة ضمنها بأن المشاركة في العملية السياسية «البورجوازية» هي السبيل الوحيد للاستمرار. وهكذا فإن تواصل وجود تيارات راديكالية يسارية طيلة تلك الفترة لم يكن يعني عدم تخلي بعضها عن راديكاليتها وبروز أخرى جديدة تعرض نفسها كأطراف أكثر طهارة ووفاء لأجندة «الثورة» ومن ثمة حسب تحليلها للماركسية ذاتها. وهكذا جاءت حركات «اليسار الجديد» (The New Left) والتي اكتسحت الساحات السياسية اليسارية خلال ستينات وسبعينات القرن الماضي. ورغم النمو المطرد للحركات الفوضوية فإن الراديكالية اليسارية الراهنة لا زالت بالأساس ماركسية لأنها لا زالت تعيش على ما تبقى من طفرة «اليسار الجديد». غير أنها تنقسم الى راديكالية يسارية كلامية وأخرى مسلحة بالفعل.

الغيفارية المشوقة: عندما تصبح الماركسية موضة

لم يكن تشي غيفارا ربما أكثر الثوريين نجاحا بالرغم من أنه كان بالتأكيد الأكثر ارتحالا. وذلك تحديدا، أي ارتحاله ومطاردته للثورة أينما كانت، هو سر الغرام الراهن بالغيفارية وليس نجاحه الثوري أو برنامجه وأساليبه بأي حال من الأحوال ما يتذكره محبوه الكثر عبر العالم والذين يتجولون بكل فخر بصورته على صدورهم بما في ذلك مهندسو السيليكون فالي وعارضات أزياء إيف سان لوران وطلبة جامعة هارفارد وفرق الروك أند رول. ربما كان هذا الانتشار الفائض ناتجا أيضا عن ملامحه الساحرة كما التقطها المصور الكوبي في احدى قيلولات هافانا بذلك السيجار الطويل في فمه كأنه أرستقراطي مسلح. في جميع الحالات فإن غيفارا القمصان الوردية والسوداء في جلسات الحشيش لمراهقين أطرياء، غيفارا البادي على أعلام مشجعي فريق الآ أس روما، وغيفارا الوسيم الرحالة الفالت من القوالب الايديولوجية، ليس إلا غيفارا مركب ووهمي ليس له إلا علاقة صورية بغيفارا كما كان أو كما كان ممكنا.

طبعا لا يعرف أو لا يهم كثيرا محبو غيفارا الجدد أن غيفارا ينتسب للماركسية. وتلك تحديدا مأساته حيث لم يعلق في الأذهان من غيفارا سوى صورة روبن هود متجول بدون عقل. فقط ما يهمهم أنه يمكن أن تكون وسيما وتنصر في الآن ذاته المظلومين الجوعى عبر جبال وغابات العالم. ولكن غيفارا هذا مقلم الأظافر ورقيق القلب ولا يقوى إلا على الابتسام وتدخين السجائر الطويلة. كما أن غيفارا المدخن هذا يبدو كثير الكلام، يستفيق متأخرا، متسخا بعض الشيء، يكره إطاعة الأوامر، ربما يشارك في الاحتجاج على استعمال أحد ماركات الملابس المعروفة لعمال دون السن القانونية في تايلند، ولكنه في النهاية يتناول وجبة الإفطار في الماكدونالد، والعشاء في مطعم إيطالي فاخر، ولا يمانع في تمضية سهرة السبت في أكثر حانات المدينة غلاء. هناك شريط ألماني جديد يذهب الى أقصى مدى كاريكاتوري في التعبير عن غيفارا اليوم: «المربون» (The Edukators) يروي قصة شبان غيفاريين ضجرين يقتحمون منازل الأثرياء خلال غيابهم لـ«قلب» الاثاث على أنه إعلان ممكن للثورة. ربما توجد غيفارية مسلحة اليوم كما هو حال تنظيم «القوات المسلحة الثورية الكولومبية»، ولكن اليسارية الراديكالية المسلحة في العالم الراهن ترتوي أساسا من منبع آخر.

مفارقات الماوية: «صين ماو» الرأسمالية وانبعاث الماوية الجديدة في آسيا

في مقال ظهر في «الهيرالد تريبيون» بتاريخ 18 نيسان/أبريل 2006 كتب فيليب بوورينغ (Philip Bowring) عن أمر بدا لي مفاجئا للوهلة الأولى. في هذه الأيام تبدو العاصمة النيبالية كاتمندو على وشك السقوط في أيدي مسلحي «الحزب الشيوعي في نيبال» الزاحفين من الأرياف ومن ثمة يبدو أن نيبال ستتحول قريبا الى حكم ليس فقط يساريا بل ماويا بالأساس. لم تكن تلك المفاجأة. من المعروف أن ماويي نيبال أصبحوا أقوياء بشكل متصاعد خلال العشر سنوات الأخيرة. وأخيرا صنعوا منعرجا هاما في تاريخ نيبال وتاريخهم في اللحظة التي تبنوا فيها خطة سياسية تدمجهم في تحالف شامل ضد الملك الحالي على قاعدة انهاء الملكية.

ما كان مفاجئا، إذا، كان أمرا آخر: يقول بوورينغ ان السيطرة الماوية في نيبال امتد تأثيرها بشكل خافت ولكن متسارع في السنين الأخيرة الى اثنتي عشرة مقاطعة في شمال ووسط الهند المجاورة. حسب التقرير يسيطر عشرات الآلاف من قوات «النكساليين» (Naxalists)، وهي التسمية المحلية الهندية لمقاتلي «الحزب الشيوعي الموحد في الهند ـ الماوي»، على مقاطعات تحوي حوالي 20 % من سكان الهند حاليا أي أكثر من 200 مليون ساكن. موازين القوى تميل بشكل متسارع لصالح «النكساليين» الى الحد الذي أدى الى اجتماع رسمي لرئيس الوزراء الهندي بعدد من حاكمي المقاطعات المعنية تلته حملة إعلامية كبيرة تتحدث بشكل معلن ولأول مرة في الهند عن «الخطر الماوي الداهم» في الوقت الذي كان فيه الكثير من الهنود يعتقدون أن الخطر الأمني الرئيسي ينبع من مسلمي مقاطعة كشمير.

يحدث هذا ليس في نيبال، أحد أفقر بلدان العالم حيث لن يؤثر صعود الماويين على كل حال على التوازن الدولي مثلما من الصعب أن يطلق ذلك حركة ثورية عالمية. يحدث هذا في الهند «أكبر ديمقراطيات العالم» وحيث معدلات النمو الاقتصادي هي الأعلى في العالم بعد الصين. طبعا ما زال أكثر من 800 مليون هندي خارج سيطرة «النكساليين» ولكن أليس من المثير للانتباه أن تنظيما ماويا يحظى بكل هذا النفوذ في وقت دفن فيه الكثيرون ليس الماوية فحسب بل الماركسية ذاتها بشكل يشير بأنها أصبحت مخلفا أثريا لا غير؟ أليس من المثير للانتباه أن ذلك يحدث تحديدا في أحد النماذج التي تحظى باحتفال المحللين الاقتصاديين الليبراليين كنموذج رأسمالي صاعد يثبت أن الرأسمالية نظام اقتصادي قادر على الارتحال والتفوق في مجالات غير غربية؟

لكن ما يحتاج أيضا التأمل هو المفارقة الناشئة عن صعود الماوية في الهند في وقت تتجه فيه وبخطوات حثيثة الصين، التي صنعتها الماوية تحديدا، نحو الرأسمالية. يلاحظ بوورينغ أن «الماوية لديها أتباع الآن في الهند أكثر من الصين نفسها». أعتقد أن تلك ملاحظة تستدعي اهتماما جديا. ولكن ليس لأنها تشير الى «انبعاث ظافر» للماوية، بل على العكس: لأنها تشير ربما الى أن ماوية اليوم تكرار كاريكاتوري لماوية الماضي.

بداية من الضروري الاقرار بالجدوى التاريخية الممكنة للتجربة الماوية في الصين وذلك بالرجوع الى النموذج الصيني ومحاولة التساؤل عن بعض المسائل الصعبة. هل كان يمكن للصين أن تحظى بكل هذه الامكانات العالية للنمو الاقتصادي الرأسمالي تحديدا لولا الثورة الماوية؟ ألم يكن لمرحلة تنظيم الانتاج وانشاء جيش شديد الانضباط من العمال المنظمين الطيعين شرطا أساسيا للبنية الراهنة لقوى الانتاج في الصين والتي تجعلها الأقل كلفة ونجاعة في نفس الوقت؟ هل كانت الدولة القومية المركزية الصينية، والتي تقود راهنا وبشكل فوقي مثل إدارة بيروقراطية لمصنع كبير النمو الاقتصادي الرأسمالي القياسي، هل كانت هذه الدولة المركزية ممكنة لولا الثورة الماوية تحديدا؟ وأخيرا، هل سيكون من الشطط التفكير بجدية في أنه لولا ماوية الصين لما كان من الممكن للصين الرأسمالية الراهنة الظهور والتألق؟

ولكن ذلك تحديدا يطرح علينا مسألة في غاية الأهمية: في الوقت الذي كانت فيه الثورة الماوية في الصين وحدها القادرة على تحقيق مهام الدولة البورجوازية، تلك المرحلة المهيمنة غربيا، ألم تفعل ذلك إلا لتلغي نفسها في النهاية؟ ألم تكن الماوية الصينية في النهاية الطريق الضروري لإلغاء البرنامج الماوي في الصين؟ حيث حققت الماوية في الصين تحديدا الدولة التي لم تكن تقوم إلا بمحاربتها. طبعا لدى ماويي اللحظة الراهنة أجوبة جاهزة على ذلك: حيث يقع اختزال التجربة الصينية وتطوراتها في أن انقلابا سياسيا و«طبقيا» حدث بوفاة ماو تسي تونغ وصعود «التحريفيين» بقيادة دينغ سياو بينغ للسلطة. وبالنسبة لهذا التحليل، ليس ذلك إلا «الانقلاب النهائي» في سلسلة انقلابات «تحريفية» بدأت خاصة مع الانقلاب «التحريفي» لخروتشيف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي. وعموما يقع اختزال المسألة في أن «القوى البورجوازية»، علينا أن نذكر هنا أنها قوى «شيوعية» أي تلك التي لم تستطع الامساك بالسلطة إلا لأنها كانت في الأساس جزءا من السلطة، أزاحت العقبة الشخصية لزعيم استثنائي من جهاز السلطة السياسية لكي «تتراجع الى الوراء» أي نحو النظام الرأسمالي. طبعا وبعد هذا الصعود الصاروخي للصين عالميا يصعب على أي ماوي جاد ألا يتساءل: هل كان يمكن للصين الاستمرار في النمو الاقتصادي لو لم تتجه نحو الرأسمالية؟ هل كان يمكن بنويا وتاريخيا للصين أن تصبح «شيوعية»؟ أليس من التسطيح اختزال تحولات بهذه الضخامة في موت شخص واختفائه مهما كانت أهميته التاريخية؟ أليس تفكيرا تآمريا تبسيطيا للغاية لا يليق بأناس ينتسبون للماركسية توصيف مآل التجربة الشيوعية بأنه مجرد «خطوة مؤقتة الى الوراء» بتأثير «طغمة تحريفية»؟ ألا تذكر هذه التوصيفات بالرؤى الجامدة لأي فرقة دينية من القرون الوسطى؟

ربما كان السيد بوشبا كمال داحال (Pushpa Kamal Dahal) المعروف بـ«براشاندا» (Prachanda)، زعيم الماويين النيباليين، زعيما ثوريا كبيرا في اللحظة التاريخية الراهنة. ولكن ذلك ممكن إلا لأنه يعاود طرح الراديكالية اليسارية بنسبها «الماركسي ـ اللينيني ـ الماوي» الى مسرح الحدث السياسي. عدا ذلك فإن أي قارئ جدي للسيد «براشاندا» لن يستطيع تحمل التكرار والشعاراتية التي تهيمن على خطابه. فما يسميه السيد «براشاندا» تحليلا ايديولوجيا ليس إلا مقولات مكررة ومهترئة لا تحمل أي تقييم جدي للتجربة الشيوعية ولا تحمل أي مساهمة حقيقية للفكر البشري. ينطبق ذلك أيضا على بقية زعماء الماوية الراهنة. علينا أن نذكر هنا بأكثرهم ذيوعا: «الرئيس قونزالو» (Presidente Gonzalo) أو أبيمائيل قوزمان، زعيم «الحزب الشيوعي في بيرو» والتنظيم الشهير خاصة مع نهاية الثمانينات «الدرب المضيئ» والذي يقبع منذ سنة 1992 في أحد السجون المعزولة. لم تعد قوات «الدرب المضيئ» بنفس وزن ما كانت عليه قبل اعتقال الأخير ولو أنها بقيت تحافظ على بعض الأنصار في بعض المناطق الجبلية وسط البيرو. «الرئيس قونزالو»، الأستاذ الجامعي في الفلسفة سابقا، والذي يمكن اعتباره الأكثر تأثيرا سياسيا وفكريا من الأحياء في الماوية الراهنة، كتب كثيرا. غير أنه من الصعب إيجاد أي تحليل جدي له بما في ذلك تركيزه الخاص على مصطلح «الماوية» الى جانب «الماركسية ـ اللينينية» حيث اعتبر أن مساهمة ماو تسي تونغ الفكرية تستحق أن تكون في نفس منزلة المساهمات التي حققها كل من ماركس أو لينين، وهو ما عكس ايمانه المتزايد بأن مركز «الثورة البروليتارية» أصبح في مجال «الأمم المضطهدة» (بفتح الهاء) وليس في مجال «الامم المضطهدة» (بكسر الهاء). أتى ذلك في إطار صراع ايديولوجي مرير في ثمانينات القرن الماضي بين الأطراف الماوية والتي كان بعضها يكتفي بمصطلح «فكر ماو تسي تونغ» عوض «الماوية». المثير للانتباه الآن أن الخط الرسمي للماويين البيروفيين، والذين يشقهم صراع سياسي وتنظيمي كبير منذ دخول زعيمهم السجن، أصبح يتبنى رؤية ترى أن مساهمة «الرئيس قونزالو» الفكرية هي بقدر الأهمية التي تستدعي وضعه بدوره مرشحا مستقبليا لمنزلة مماثلة لماركس ولينين وماو، حيث يقترحون الآن الدفاع عن «الماركسية ـ اللينينية ـ الماوية ـ فكر الرئيس قونزالو» أو، في شكل أكثر ظرفا، يسمون قوزمان «السيف الرابع للشيوعية». وعموما أصبح معنى «المساهمة الفكرية» بالنسبة للماوية الراهنة يتخذ شرعيته بشكل شخصاني وتحديدا من خلال التجربة الثورية التي «حققها» هذا الزعيم أو ذاك وليس على أساس عمق المساهمة الفكرية التي أنتجها. حيث من المتوقع أن نسمع في المستقبل القريب في نيبال شيئا مثل «الماركسية ـ اللينينية ـ الماوية ـ فكر براشاندا»... وهكذا دواليك.

لا يمكن الالتجاء الى الصدفة لتفسير انتشار الماوية الجديدة في أكثر البقاع أمية وفقرا وحيث تنتشر رغبة هائلة في الانتقام جراء الاهمال الاقتصادي والثقافي الطويل. لا ينطبق ذلك على أرياف نيبال فحسب حيث توجد أكبر معدلات الفقر عالميا، بل ينطبق أيضا على تلك المقاطعات الهندية حيث يسيطر «الناكساليون» مثلما ينطبق على جبال وسط البيرو حيث يقبع ما تبقى من قبائل الهنود الحمر المهمشين طيلة قرون تحت الهيمنة الاسبانية. تثبت دراسات ميدانية قام بها بعض الانتوغرافيين خلال الثمانينات أن قوات «الدرب المضيئ» كانت تعتمد على قواعد من الفلاحين الأميين الذين لا يفقهون من برنامج «الرئيس قونزالو»، والذي بالمناسبة كان الكثير منهم يعتقدون أنه روح أحد الآلهة المحلية وليس شخصا حقيقيا، إلا أنه دعوة للقتل المنهج تجاه التجار والفلاحين الأغنياء. وكان «الدرب المضيء» يقوم عند تطبيق أحكام الاعدام باستعمال أساليب «تراثية» هندية حيث يقع قطع الساقين والرأس وإعادة خياطتهما في الاتجاه المعاكس حتى لا تسعى روح الميت الى التعرف على هوية قاتليه. إن نموذج «ثورة العمال والفلاحين» في هذه الحالة ليس تجسيدا للـ«وعي الطبقي الذاتي» بل توجيه أقلية من المثقفين النزقين المغرمين بالثورة لمجموعات من الفقراء الأميين والمفعمين بالرغبة في الانتقام حتى أنهم لا يدركون بالتحديد ماذا يريدون تحقيقه. وفي النهاية فإن هذا النموذج تميز عن سابقيه بأنه رسخ عبادة شخص النبي ـ الثوري ـ القائد حتى قبل الامساك بالسلطة حيث أصبح «الرئيس قونزالو» نفسه الضامن الأساسي للثورة ونجاحها. وهكذا عندما تدهورت الاستراتيجيا العسكرية لـ«الدرب المضيئ» وحاولت القفز على المراحل و«محاصرة المدن بالأرياف» حتى قبل السيطرة على الأرياف واتجهت لحملة من التفجيرات العشوائية للسيارات المفخخة في العاصمة ليما بتوجيه من «الرئيس قونزالو»، لم يكن اعتقال الأخير سوى القطرة الأخيرة في الرقصة البهلوانية لماويي البيرو. حيث كان على «حرب الشعب» أن تنتهي في ظرف وجيز لأن «السيف الرابع للشيوعية» كان يدخن سجائر أجنبية معينة ويستعمل مرهما جلديا مميزا تم العثور عليها في قمامات حي فخم في ليما وهو ما قاد ضباط الأمن البيروفيين والمخابرات الأمريكية الى التعرف على مكانه وإيقافه.

«الايمان» الماركسي؟

«الإيمان» عوض التفكير النقدي هو السمة المميزة لقادة الماوية الراهنة وغيرهم ممن تبقى من أنصار الرمق الأخير للـ«الفكر الماركسي اللينيني». وبمعنى آخر فإذا كان هناك تفكير فذلك لا يوجد إلا على أساس التوافق على أساس مصادرات غير مبرهن عليها أو تحتاج في أقل الأحوال إلى إعادة التفكير والبرهنة بفعل ما حدث على مدار التجربة الشيوعية. التفكير بالنسبة لهؤلاء يحتاج، أولا، إيمانا بمسلمات لا يوجد جهد حقيقي للتعمق فيها. ينتهي «التفكير» هنا الى مأزق السياسوية. حيث تصبح المهام السياسية هي المجال الوحيد للتفكير في حين تكون المسلمات الكبرى التي على أساسها تم وضع المهام السياسية مسائل غير قابلة للمجادلة.

ولكن لم يكن ماركس «مؤمنا» بل كان مفكرا نقديا. أو كان «مؤمنا» بما توصل اليه عبر التفكير النقدي وليس عبر اعتماد بديهيات غير قابلة للتبرير أو البرهنة. وهو نفسه لم يسوق تلك المصادرات الكبرى على أنها ديانة بل قدمها في نظام فكري جهد كثيرا في البرهنة عليه. ولا يوجد شيء يجعلنا نعتقد أن ذلك النظام الفكري قدر محتوم يعكس بشكل نهائي الواقع. بل انه ليس من الماركسية أساسا أن يوجد فكر بشري مقدس لا يقبل المراجعة: الواقع وحده مقدس.

ظاهرة «الساب. كوماندنتي ماركوس» الفريدة

تحديدا عندما بدأ الكثيرون ينسون ذلك النموذج الأمريكي اللاتيني في الثورات الراديكالية اليسارية، تحديدا عندما بدأ نجمها يأفل، بزغ نجم «الساب ـ كومندنتي ماركوس» (Sub ـ Commandante Marcos) الناطق باسم «الجيش الزاباتي للتحرير الوطني». تم ذلك بشكل استعراضي بالغ في الأول من كانون الثاني (يناير) 1994. كان حفل بداية العام في جبال وغابات الجنوب الشرقي المكسيكي بالنسبة لبقايا قبائل المايا إعلانا للثورة واحياء للتراث الزاباتستي. ولكن منذ البداية وحتى الآن قام «ماركوس» ورفاقه بكل شيء للتمايز عن الحركات الراديكالية اليسارية الأخرى الى الحد الذي يصعب فيه تعريفهم بأنهم راديكاليون يساريون. أولا، والأهم من كل شيء، فإن «ماركوس» كاتب ومفكر بارع، لا يمكن لأي قارئ جدي أن يفلت من سحره. ولأن «ماركوس» لا يكذب على نفسه ويعرف أن أزمة الخطاب الماركسي تحتاج أكثر من بعض التلفيقات التبريرية فقد اختار، وهو ذو التكوين الفلسفي، خطابا يغلب عليه الطابع الروائي السوريالي القريب جدا أحيانا من أسلوب الكوميديا السوداء في كتابات قابريال قارسيا ماركيز مع عمق ورهافة حس فكرية كبيرة. ولا يلتزم «ماركوس» بشكل نهائي وشامل بالماركسية حتى أن البعض وصل الى حد نعته بالفوضوية بالرغم من أنه يمقت بشكل علني الأساليب العسكرية الفوضوية كما أنه كان ماويا في شبابه ولا يخفي تأثره بالفكر الماركسي.

من الضروري في النهاية وضع هذا الانبعاث ضمن إطاره التاريخي أي تحديدا الصعوبات الكبيرة للنظام الدولي الراهن وتحديدا في ظل قيادة قطبه الأوحد حتى الساعة في خلق «سلام أمريكي» وتفادي صعود التيارات الراديكالية بمختلف أنواعها سواء بأجندة طبقية ـ اجتماعية أو ثقافية ـ دينية والمنادية بتدمير النظام القائم وتعويضه كلية. طبعا جانب من هذه الصعوبات ليس ناشئا فقط عن عجز بنيوي على خلق «سلام امبراطوري» بل أيضا بسبب الراديكالية الامبراطورية و«عنفها الثوري» الذي لا يمكن أن يترك الكثير من المحايدين. غير أن راديكالية مضادة عنيفة هي خطوة غير كافية. والأهم من ذلك فقد وقع تجريبها، بل بعقول كبيرة وأجندات ذكية. غير أنها لم تدفع إلا لوعي النظام القائم بذاته وتعديل نفسه تدريجيا حتى أصبح الفعل الراديكالي غير ذي جدوى. هذه المرة تبدو الراديكاليات الصاعدة محدودة التفكير الى الحد الذي يمكن وصفها بأنها حركات حسية لا غير. وذلك لا يبشر في أقل الأحوال بصراع ممتع مثل ذلك الذي شهدناه طيلة القرن العشرين حين كان تحمل الدماء ممكنا ما دام الفكر البشري يبدو كأنه يخطو خطوات غير مسبوقة.

يقف «ماركوس» على النقيض من الانجذاب الجارف راهنا نحو عنف حسي بالغ القسوة بدون آفاق جدية. ربما لا يماثله في هذه الفرادة كونيا سوى منظمة «حزب الله» اللبنانية ولكن تلك لا تندرج ضمن موضوعنا الراهن المتعلق تحديدا بالحركات الراديكالية اليسارية ذات الخلفية الماركسية. ولأنه يقف في مفترق الطرق الصعب بين ضرورة الشروع في ثورة والحاجة البالغة في التفكر في ماضي الثورة وأسسها الماركسية فإن «ماركوس» بالغ الحذر عند تقييم آفاق ثورته الزاباتية ويحاول ببالغ الرهافة تجنب منح أي «أهمية تاريخية» فريدة أو أممية لثورته. فهو يراها ضمن إطار شديد الخصوصية والمحلية لا يتعلق حتى بالمكسيك ككل بل بجزئها الجنوبي الشرقي فحسب. هذا «التواضع الأممي» يعكس تحديدا تذمره الشديد من أي نسق تاريخي شامل. والى جانب فعله المسلح الى جانب فقراء ما تبقى من شعب المايا، وهو الذي لا ينتسب حتى اليهم، يكتب «الساب ـ كوماندانتي» نصوص الكوميديا السوداء السوريالية والتي تخرج في شكل بيانات رسمية أحيانا وبعناوين مثيرة (مثل «أتبرز على جميع الثوريين في العالم» الذي كتبه وهو في المرحاض) ولكن المغمسة بعناية في عمق فكري يمتاز بالرغبة الجامحة في الانطباعات النسبية، ليعكس بالتحديد نظرته الشذرة للاعتقاد المجاني في المسلمات.

صحيح أنه مثل غيفارا رسم لنفسه صورة شديدة الاتقان، قناع أسود يفرض صفة المجهول الثوري على شخصه، ولكن هنا يتدلى من فمه المقنع غليون عتيق يستبدل سيجار التشي. وهكذا، وعلى خلاف غيفارا، يحرص «ماركوس» أن يرمز الى أنه يتقن التفكير وليس العربدة الثورية، تعقل الغليون بدل التبرج الفارغ للسيجار. ربما هذه هي الموازنة الوحيدة الممكنة راهنا بين التعقل الماركسي والحاجة المستلزمة للثورة: «بالتأكيد الغليون عوض السيجار، ولكن لم لا قطعة سلاح وقناع... إن لزم الأمرفحسب!»، هذه هي الحالة الأقرب للماركسية في الوقت الراهن، على ما أعتقد.

لم يكن كارل ماركس جوهريا ومهما لأنه كان ثائرا. كان جوهريا ومهما لأنه كان مفكرا غير عادي. في التفكير غير العادي والجديد والعميق تكمن مصادر فرادته. كان ماركس ملهما للثوار لأنه قبل ذلك كان مفكرا جديا. اكتشف ماركس الثورة كقانون نظري قبل أن يحاول ممارستها أو ينصح بممارستها ولم يمارس الثورة ليبحث عن قوانينها. كان ماركس ثوريا بالصدفة. هذا هو الإرث المنسي لكارل ماركس اتفقنا حول رؤاه أم لم نتفق. في بقية تأبينه لرفيقه الراحل لم يجد انجلز أن يخلد ماركس إلا بأفضل انجازاته الفكرية وليس السياسية: ليس تأسيس الأممية بل اكتشاف قوانين أساسية تحرك المجتمع البشري. يضيف أنجلز في تأبينه لرفيقه: «مثلما اكتشف داروين قانون التطور أو الطبيعة العضوية، فإن ماركس اكتشف قانون تطور التاريخ البشري... ولكن ليس ذلك كل شيء. فماركس اكتشف أيضا قانونا خاصا يحكم نمط الانتاج الرأسمالي الراهن والمجتمع البورجوازي الذي خلقه هذا النمط. فقانون القيمة المضافة سلط وبشكل مفاجئ الضوء على هذه المسألة... مثل هذين الاكتشافين سيكونان وحدهما كافيين في حياة أي كان. كما سيكون أي انسان سعيدا بتحقيق اكتشاف واحد منهما. ولكن أكثر من ذلك حقق ماركس في أي مجال بحثا تصدى له اكتشافات جديدة بما في ذلك في الرياضيات... وسأتجرأ على القول بأنه حتى لو كان له كثير من الخصوم فإن ماركس لم يترك عدوا شخصيا واحدا. أما اسمه فسيستمر عبر العصور وكذلك عمله».

أنجلز نفسه كان مفكرا كبيرا. وحتى ممارسو الثورة المحنكون من طينة لينين أو ماو تسي تونغ لم يكونوا مفكرين تافهين. ففي كل الحالات وبالرغم من سياسوية الكثير من أطروحاتهما النظرية لم ينزع أي منهما الى التكرار البليد والساذج. وفي الحقيقة... لا يمكن أن أقول نفس الشيئ مثلا عن القادة الراهنين للماوية الجديدة في آسيا أو غيرها.

* باحث تونسي يقيم في أمريكا الشمالية
http://taherlaswad.blogspot.com
laswadtaher@yahoo.com

نشوء «الردع الهيروشيمي»!

جواد البشيتي*

كثيرون هم من اللبنانيين والعرب الذين لهم مصلحة في أن يجادلوا «حزب الله» في نصره العسكري، الذي على وضوحه في أبصار وبصائر من يزن «النصر العربي على إسرائيل» بـ«ميزان النسبية»، لا يعدل في حجمه الهزيمة العربية في حزيران 1967؛ وربما نعزو وجاهة بعض من حجج المجادلين إلى هذا الفَرْق الكبير في الحجمين المطلقين: حجم انتصار «الحزب» وحجم هزيمة الدول والجيوش العربية، فهزيمتهم كانت أكبر وأعظم من أن يمحو عارها ونتائجها انتصاره على كِبَرِه وعظمته النسبيتين.

و«النصر»، في بعض من تعريفه الانهزامي الذي تناهى إلى أسماعنا بعد «التوقف التام للأعمال القتالية»، ليس بنصرٍ لسببين: حجم الدمار والموت اللذين نشرتهما في لبنان آلة الحرب الإسرائيلية كان أعظم من أن يحجبه «غربال» النصر الذي يقول به «حزب الله»؛ ثمَّ أنَّ الانتصار «الحقيقي» للبنان (فذاك الانتصار ليس بالحقيقي!) هو إعادة بناء ما دُمِّر حتى يصبح ممكنا وصف من ساهم في تمويل إعادة البناء بأنه «المنتصِر الحقيقي». وما دامت الغاية هي أن يبخسوا «حزب الله» نصره، الذي هو نصرنا، فلا بأس من القول البليغ «الانتصار على النفس هو دائما أشق وأصعب من الانتصار على العدو.. ولبنان يحتاج الآن، وأكثر من ذي قبل، إلى الانتصار على النفس»!

وتوقُّعهم هو أن يُصدِّق «حزب الله» قولهم وحججهم، فيقف، سياسيا، من نصره العسكري، الذي لا ريب فيه، الموقف الذي يسمح لهم بتحويله إلى هزيمة سياسية، فالمهزوم سياسيا قد يكون منتصرا عسكريا؛ ولكن نفثوا في روعه أنَّ انتصاره العسكري كان وهماً، أو كذبة كذبها فصدَّقها.

وفي الجدال ذاته، لا بد لنا من أن نُدرِج تأكيد «حزب الله»، والذي لا مبرِّر موضوعيا له، أنَّ إسرائيل لن تعيد الكَرَّة، أي لن تستأنف الحرب. هذا التأكيد قد ينفع عاجلا؛ ولكنه قد يضر آجلا، فالحزب يريد أولا، في تأكيده، أن يقول إنَّ النصر الذي أحرزه على إسرائيل سيردعها عن استئناف الحرب، وإنَّ اللبنانيين، الذين عانوا ويلات الحرب، سينعمون من الآن وصاعدا بما يشبه السلام المُكْرَه عليه الإسرائيليون. وأحسب أن الهزيمة التي مُنيت بها إسرائيل (ومعها الولايات المتحدة) لن تردعها عن استئناف الحرب، وإنَّما ستضطرها إلى استئنافها، فدولة الجيش الذي لا يُقْهَر فقدت في حربها على «حزب الله» ما يجعلها ترى في استعادته شرط بقاء.

هذا في «النصر» الذي فيه يجادلون؛ ولكن هل ظل «الردع»، مفهوما وواقعا، بمنأى عن التغيير؟ كلا، لم يظل، فالتغيير فيه، والذي لم نرَ منه حتى الآن إلا نزرا، هو النتيجة الأهم التي تمخَّضت عنها الحرب، فما معنى أن يقول الأمين العام لـ«حزب الله» حسن نصر الله إنَّه ما كان ليأمر بالقيام بذاك العمل العسكري الذي أفضى إلى أسر جنديين إسرائيليين لو كان يعلم أنَّ الرد العسكري الإسرائيلي (العقابي أو الانتقامي أو الردعي) سيُلْحِق بلبنان دمارا بهذا الحجم الهائل؟ ما معنى أن يقول إنَّ تاريخ الحروب لم يعرف مثل هذا الـ«لا تكافؤ» بين الفعل ورد الفعل؟ قد أفهم قوله على أنه من قبيل «التعليل» و«الاعتذار»، وكأنه أراد أن يقول للبنانيين: توقَّعْتُ رداً عسكريا إسرائيليا؛ ولكن ليس في هذا الحجم؛ ولو كنتُ أعلم حجم الرد العسكري الإسرائيلي لما أمرتُ بالقيام بذاك العمل العسكري.

من ذلك، يمكن ويجب أن نستنتج أن «حزب الله» الذي يعلم من الآن وصاعدا حجم الرد العسكري الإسرائيلي سيرتدع أكثر عن القيام بأي عمل عسكري يشبه ذاك لجهة تأثيره في إسرائيل.

هذا إنما أحد وجهي المسألة؛ ووجها الآخر لا يقل أهمية إنْ لم يزِد، فإسرائيل لا يردعها رادع عن جعل «الدمار الهيروشيمي» جوهر مفهوم «الردع العسكري ـ الاستراتيجي» الذي شرعت تأخذ به. إنَّها لم تستخدم بعد السلاح النووي الذي تملك منه كثيرا؛ ولكنها استخدمت، ومصمِّمة على استخدام، ما يعدله دمارا وموتا، وكأنَّ «الدمار الهيروشيمي» هو الرد الوحيد الذي تملك على عجزها عن الانتصار العسكري (البري) على «حزب الله»، أو على أي عدو عربي يمكن أن يقاتلها مستقبلا كما قاتلها «حزب الله» وفي طريقته.

و«الدمار الهيروشيمي»، ردا أو عقابا أو انتقاما أو ردعا، هو في حد ذاته خير دليل على أن العقيدة العسكرية ـ الاستراتيجية الإسرائيلية قد تغيَّرت في العمق والجوهر؛ ولا شك في أن تحوُّل الولايات المتحدة إلى «القوة الإمبريالية العظمى في العالم» قد هيَّأ لهذا التغيير مزيدا من الأسباب والدوافع. ولا شك، أيضا، في أن اتِّخاذ إسرائيل لـ«الدمار الهيروشيمي» عقيدة استراتيجية جديدة لها هو خير دليل أيضا على الإخفاق الكبير الذي منيت به آلة الحرب الجوية الإسرائيلية، ثمَّ آلة الحرب البرية الإسرائيلية، فـ«حزب الله»، من الوجهة العسكرية، قاتل في طريقة أعجزت سلاح الجو الإسرائيلي عن إحراز انتصار عسكري عليه، يكفي الجيش الإسرائيلي شر الحرب البرية، التي ما أن اضطُرَّ إلى خوضها حتى أدرك أنها ما عادت تمنحه القدرة على تذليل العقبات من طريق إحرازه النصر العسكري على «حزب الله».

«الرد (أو الردع) الهيروشيمي»، والذي يمكننا وينبغي لنا فهمه على أنه الامتداد الحتمي للعجز الإسرائيلي عن الحسم العسكري عبر «الحرب النظيفة»، جوا وبرا، إنَّما يشدِّد الحاجة إلى إضعافه وتقويضه عبر التحصين العسكري لمنشآت البنية التحتية المدنية، لبنانيا وعربيا، وعبر التزوُّد، لبنانيا وعربيا، بما يكفي من الأسلحة الكيمائية والبيولوجية مع ما تح